شرح كتاب المطوّل

في البلاغة

سعد الدين مسعود التفتازاني

د. محمود توفيق

المحاضرة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه، ومَنْ اهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

من هنا سنبدأ قولًا في البلاغة، فما سبق كان مجرد مدخل، والآن سنبدأ من المقدِّمة، والمقدِّمة عندنا تعالج مصطلحين أساسيين في علم البلاغة:

- **مصطلحٌ يُسمَّى مصطلح الفصاحة.**
- **ومصطلحٌ يُسمَّى مصطلح البلاغة.**

جمهور البلاغيين -قبل السكَّاكي- لم يكونوا يفرِّقون بين هذين المصطلحين، وكانوا يستعملون مصطلح الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان والبديع، وما شاكل ذلك بشيءٍ مقارب.

عبد القاهر لما تكلَّم في (الدلائل) قال: (**والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان وما شاكل ذلك مما يُعبَّر به عن كذا..**)، فجعل هذه الكلمات كأنها تُنبِئ عن شيءٍ واحدٍ، مع أنه -بعد ذلك- في الصفحة نفسِها قال: (**لكلِّ معنًى لفظٌ هو أخصُّ به، وأتم له وأشكل**)، هكذا يقول.

ولذلك نقول أن عبد القاهر لم يكن يذهب إلى القول بما يسميه الناس بالترادُف؛ لأنه يرى فرقًا بين هذه الأشياء.

مصطلح الترادف: يُراد به التطابُق، وهذا غير صحيح؛ لأنه ليس في العربية كلمتان متطابقتان!

والله -سبحانه وتعالى- لم يخلق أحدًا طبق الأصل من الآخر! مسألة التناسُخ هذه غير موجودة، هناك فرقٌ بيني وبين أي إنسان منذ أن خلق الله آدم! هذا التميُّز مهمٌّ.

وفريضةٌ على كلِّ إنسان أن يعرف المزيَّة التي اختُص بها ولم يكن أحدٌ منذ سيدنا آدم إلى أن تقوم الساعة يشاركه فيها! وكأن الله ما خلقه إلَّا لها، فعليه أن يبحث عنها ويستثمرها؛ لأنها هي التي ستضيف إلى حركة الحياة.

أنا لا أضيف إلى حركة الحياة فيما تلاقيتُ فيه مع الناس؛ لأن هناك مَنْ يقوم به غيري، وكل عملٍ يمكن أن يقوم به غيرك فدَعْه له، ما يمكن للعامة، أو الدهماء، أو سواد الناس أن يفعلوه النبلاء يتركونه.

ولذلك -وأنتم تقرأون في البلاغة- ستجدون أن البلاغيين يتركون أشياء لا لأنها ليست مفيدةً، ولا لأنها ليست قيمةً؛ ولكن لأن إدراكها ميسورٌ على كثيرٍ، وما دام ميسورًا على كثير أقول لك: البلاغي لا يشتغل به.

لما نأتي عند الفصل والوصل ستجد أنه يقول لك:

- أنا لن أشتغل مع العطف بغير الواو.

- **لماذا؟ هل لأنه خلاءٌ من الفائدة؟**

- قال: لا، ولكن ما فيه من فائدة يمكن أن يدركه كثيرٌ من الناس؛ وما دام يدركه كثيرٌ من الناس، فلا يليق بالعقل البلاغي أن يشتغل به، عليه أن يشتغل بما يعجز الآخرون عنه، والذي يعجز الآخرون عنه -أو كثيرٌ من الناس- هو العطف بالواو، فبدأ يشتغل فيها.

وقال أيضًا: أنا لن أشتغل بعطف جملةٍ لها محلٌ من الإعراب، أو لها قيدٌ معنويٌّ.

- **لماذا؟**

- قال: الناس جميعًا يعرفون سر العطف، فأنا لا أشتغل به، ولا أشتغل بعطف المفردات؛ لأنه ميسورٌ على كثيرٍ من الذين يفكِّرون أن يدركوه؛ فأنا لا أشتغل به.

إذًا حين يخصِّص أنه لن يعمل إلَّا في هذا، حتى عبد القاهر لما يأتي في التشبيهات يركِّز على شيءٍ معين؛ لا لأن غير هذا لا قيمة له، له قيمةٌ لكن هو يُباع في الأسواق على قارعة الطريق! فلا أعمل به.

فيأتي إلى ما له خصوصية، فيه أمران يحفِزان البلاغي على أن يعمل، ما كان خفيًّا، وما كان طريفًا:

- كل معنًى لا خفاء فيه هو لا يشتغل به.
- كل معنًى لا طرافة فيه –الطرافة التجدُّد– لا تجدُّد فيه؛ بحيث كلما نظرتَ فيه أعطاك لا يشتغل به.

لأنه لا يستحق أن أنفق جهدي وعمري فيه، في حين يمكن لغيري أن يفعله.

مبدأ هام:

أنا أقول دائمًا للناس: وأنتم في حركة الحياة اتخذوا هذا المبدأ! إذا رأيت أناسًا يشتغلون بشيءٍ فاتركه لهم، وافعل فيما لا يستطيعون، فالفائدة من هذا تعود عليك أنت أولًا، فهي تحقِّق لك السلام الاجتماعي مع الآخرين؛ لأنك لن تنازعهم في شيءٍ، والناس إنما يعادونك حين تنازعهم في شيءٍ، فدع لهم ما في أيديهم، وابحث عن شيءٍ هم عاجزون عنه؛ فلن تجد أحدًا ينازعك.

وحين يتحقق السلام الاجتماعي والنفسي لطالب العلم يُنتج؛ لأنه لا يمكن للعقل العلمي أن يعمل إلَّا إذا تحقَّق له ما نسميه بالأمن الفكري.

اترك ما في أيدي الناس يتركك الناس، أنا أقول هذا الكلام لكيلا تعمل في شيءٍ غيرك يعمل فيها، وابحث عن شيءٍ آخر هو لا يستطيع أن يعمله؛ فإذا صنعته أنت تتلمَّذ هو على يديك، فهذا مهمٌّ جدًّا! هذا منهجٌ تأخذه في حياتك! لن يكون لك أعداءٌ في الغالب، على الأقل في الظاهر.

اشتغال البلاغيين على المعاني التي فيها خفاء:

البلاغيون دائمًا يميلون إلى ما فيه الخفاء، القضايا التي فيها خفاء، القضايا التي كلما نظرتَ فيها أعطتك! حتى لا تشعر بِعُقْم ما تفعل؛ لأني لو اشتغلتُ ثم أجد أن المنتَج الذي سأحصِّله ليس على قدر الجُهد والعمر الذي أبذله ربما أتركه.

رسالتنا في الحياة:

فمهمٌّ جدًّا أن تعرف فيم تعمل؟ ولماذا تعمل؟ وكيف تعمل؟ ثلاثة أسئلة، هذا لكل واحدٍ يريد أن يشتغل ويؤدِّي رسالته في هذه الحياة، التي هي إعمار الحياة كونًا وإنسانًا، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ هذه رسالتي ورسالتك ورسالة كل الناس.

ربما تدخل النار بسببها! لأنك لم تؤدِّ رسالتك التي هي إعمار الحياة، إنما أنت عامرٌ ابن عامرٍ، يَعْمُر هذه الحياة بكونها كله، وبالإنسان الذي خُلِق له هذا الكون، المهم عندنا أن ننتبه لهذه المسألة!

قلتُ إن البلاغيين —وعلى رأسهم عبد القاهر– لا يرون أن الكلمة تؤدِّي معنًى يمكن أن تؤديه كلمةٌ أخرى، لا يوجد تشارُك بين كلمتين في عملٍ واحدٍ، لا بد أن تكون هناك مزيَّة لكل واحدةٍ منهما.

فيأتي عبد القاهر بعد أن يقول لي: كيف يمكنك أن تصل إلى جوهر البلاغة؟ يقول: أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أخص به؛ أي من أين ستدخل على المعنى؟

كل معنًى له بابٌ تدخل إليه منه:

وهذا أصعب ما يواجهه الأديب! وأصعب ما يواجهه الناقد والبلاغي حين يدرس نصًّا، كيف دخل الشاعر على هذا المعنى؟ ما هو مدخل الشاعر إلى المعنى؟

كتاب (الشعر الجاهلي) للشيخ أبي موسى:

الذين قرأوا كتاب الشيخ أبي موسى (الشعر الجاهلي) دراسة في منازع الشعراء، نجده يضرب في نقطةٍ قلَّما ننتبه إليها، منْزِعه إلى المعنى، من أين انتزع المعنى وكيف انتزعه؟ هذا أصعب ما يكون وأنت تمارس قراءة الشعر!

فالشاعر هذا ينتزع معانيه من عالمٍ آخر وفق رؤيةٍ شعريةٍ مخالفةٍ للرؤية الإنسانية العامة، فرقٌ كبيرٌ بين الرؤية العقلية للأشياء، والرؤية الشعرية للأشياء، هذه الرؤية الشعرية هي التي تجعله يدخل إلى القضية من مدخلٍ،

يقول: كل إنسـانٍ له مدخلٌ، له بوابةٌ تدخل له منها، تعرف من أين تدخل له، يسـتجيب لك، وإن لم تكن تعرف أن تدخل لفلان هذا من هنا؛ فلن تصل إلى نتيجةٍ معه.

كذلك المعنى، كل معنًى له باب تدخل له منه، كيف أصـل إليه؟ هذا هو الإشـكال، ثم يقول: "**هذا هو الجانب الأيمن للطريق إلى بلاغة البيان**".

وبالنسبة للجانب الآخر يقول: "**وأن تختار اللفظ**" هو يقصد باللفظ هنا الصـورة، المفرد والتركيب كله، فعبد القاهر إذا قال: اللفظ فلا يريد المفرد، احذف كلمة (لفظ) وضـع مكانها الصـورة أو التركيب، فحيث وجدتَ كلمة (لفظ) يقصد به الصورة والتركيب.

قال: "**وأن تختار له اللفظ الذي هو أخص به**" ما دام قال: أخص به، فهذا المعنى ليس له إلَّا كلمةٌ واحدةٌ "**وأتم له**" هذا اللفظ يُتم المعنى ليس لذاته، يتم المعنى في فؤادك أنت، هو لا يقصـد أن الألفاظ هي التي تتمم المعنى، لا، هو لا يقصـد هذا، هو يقول: "**هو أخص بذات المعنى، وهو بالنسـبة لك قارئًا أتم للمعنى في فؤادك**" لو عبَّرنا عنه بكلمةٍ أخرى، لماذا نقول هذا الكلام؟ لأننا ونحن نتكلَّم في الفصاحة سنجد أن بعض الكلمات استُخدمت وهي غير فصيحةٍ.

☼ طيب، لِم الرجل استعملها؟ أليس عربيًّا؟ ألا يعرف أنها معيبةٌ؟ يعرف أنها معيبةٌ، فلم استخدمها؟

- لا بد وأن يكون من وراء ذلك مقتضٍ شعريٌّ يريده، هو سمع الكلمة كما تسمعها أنت، وهو صاحب حسٍّ موسيقيٍّ أعلى من حِسي أنا؛ فلِم أراد بها وهو قادرٌ على أن ينتزعها، ويأتي بغيرها؟

- يقول: لأن لديه معنًى وغرضًا ومقصدًا، هو يرى أن هذا اللفظ الثقيل على سمعك، الغريب على إدراكك، هو أخصُّ بالمعنى الذي عنده، وهو أتم للمعنى في فؤادك حين تتبصَّر، فلو جئتُ بغيره لما بلغ بك المعنى الذي أريده أن يبلغك، إذًا هناك مقاصدٌ من وراء كثيرٍ من الكلمات.

غرض الشعراء من استعمال الكلمة غير الفصيحة:

جمهرة شعرائنا -في العصور الأُوَل- لم يستعملوا الكلمات التي قيل عنها أنها غير فصيحةٍ استعمالًا عن طريق خطأٍ! وإنما عن تعمُّدٍ، يريد إيصال معنًى إليك لا يمكن أن يصل إليك إلَّا من خلال هذه المطبَّات الموجودة في الطريق، فالشاعر حين يأتي بأشياء غير مريحةٍ، هي غير مريحةٍ لكن هل تُحقِّق للرجل غرضه ومقصده؟ إن كانت كذلك فهو يخدم نفسه، ويخدم غرضه؛ فلا تثريب عليه في هذه الحالة.

تفريق العلماء بين معنى الفصاحة ومعنى البلاغة:

قلتُ أن عبد القاهر لم يكن يستخدم كلمة فصاحةٍ وكلمة بلاغةٍ، بمعانٍ مختلفةٍ، جاء العلماء -بعد ذلك- فبدأوا يفرِّقون بين الفصاحة والبلاغة، فجعلوا الفصاحة مرحلةً متقدِّمةً لا بد من تحقُّقها أولًا، فهي أشبه بالوضوء للصلاة، والبلاغة هي الصلاة، فلا تصلُح بلاغةٌ بغير فصاحةٍ، كما لا تصلح صلاةٌ بغير وضوءٍ.

(الفاء) و(الصاد) و(الحاء) هذه الكلمة عندما يفسِّرونها يقولون: (فَصُحَ) بمعنى بانَ، بانَ الشيء، البينونة ليس معناها الظهور؛ لما تقرأ في كتب البلاغة يقول: "**وعلم البيان: البيان هو الظهور**" نقول له: هذا تفسيرٌ باللازم، لكن ليس بحقيقة المعنى، هذا لازم أصل المعنى، لازم أن نعرف في الكلمات ما هو أصل المعنى.

كتبٌ لا بد أن تكون في متناول يدك دائمًا:

كنت أقول لأخينا وائل: مَنْ يشتغلون في الشعر، ومَنْ يشتغلون في البلاغة والأدب على أيمانهم وشمائلهم كتب لا توضع على الرف، فهناك كتبٌ لا أضعها على الرف، دائمًا أمامي، هنا كتاب (الخصائص) لابن جني، هنا كتاب (مقاييس اللغة) لابن فارس، هذه كتبٌ لا بد أن تكون على يمينك دائمًا؛ لأنك تحتاجها دائمًا، لكن الذي أنظر فيه اليوم، وغدًا لا؛ أقرأ فيه وأعيده مكانه.

فأنت لا بد أن مثل هذا الكتاب (مقاييس اللغة) مهمٌّ جدًّا؛ لأن هذا الكتاب أُقيم على نظريةٍ لغويةٍ لو طبَّقناها على نظريةٍ اجتماعيةٍ لخرجنا من المأزق الاجتماعي والاقتصـــادي والأخلاقي الذي نحن فيه، لو طُبِّق هذا المبدأ؛ وهو مبدأ التركيب لا التجسيد، يركِّب ولا يُجسِّد، يوحِّد ولا يفرِّق.

اقرأ مادةً في (مقاييس اللغة) لا بد أن تعرف في كل كتابٍ تقرأه، كيف ولماذا تقرأه؟ أنا معي كلمةٌ ممكن أرجع إلى (لسان العرب) مرةً، ومرةٌ لا أرجع إلى (لسان العرب)؛ أرجع لـ(مقاييس اللغة).

☼ متى أرجع إلى (لسان العرب)، ومتى أرجع لـ(مقاييس اللغة)؟

- إذا كنتُ أريد أن أكتشــف الأصــل الذي يجمع متفرِّقات المادة ألجأ لـ(مقاييس اللغة)، المادة اللغوية (الفاء) و(الصاد) و(الحاء) هذه مادةٌ لغويةٌ، هذه المادة اللغوية تتشقَّق منها كلماتٌ كثيرةٌ.

اللغة العربية لغة اشتقاقٍ:

اللغة العربية لغة اشتقاقٍ، واللغة الاشتقاقية لغةٌ واسعةٌ، العلماء يقولون أن من أقل اللغات مادةً اللغة العربية، مواد اللغة العربية قليلةٌ، ومن أكثر لغات العالم ألفاظًا!

أنا عندي مادةٌ واحدةٌ، وأشتق منها كلماتٍ كثيرةً جدًّا جدًّا جدًّا، هذه المشتقات كلها لها أبٌ؛ الذي هو أصل المعنى، فأصل المعنى هذا موجودٌ في

كل كلمةٍ فاؤها (فاء)، (صـــاد)، (حاء)، ثم كل كلمةٍ —كما قلتُ لك منذ قليلٍ- كل شـــيءٍ له مزيةٌ تفارقه عن الآخر، إذًا فيها أصـــلٌ آدميٌّ، ثم –بعد ذلك- أنت أضفتَ على الأصل الآدمي؛ فتميَّزتَ عن غيرك.

فجميع الكلمات التي ســتُشـتق من أيِّ مادةٍ علميةٍ لا بد وأن تبحث عن الأصل، أصل المادة، ثم –بعد ذلك- ما أضافته الصيغة الاشتقاقية إلى الأصل، ما أضـافته الصيغة الاشتقاقية إلى الأصـل، وهكذا؛ فبتعدُّد الصِّيغ الاشتقاقية تعدَّدت المعاني الزائدة.

البلاغة تشتغل على المعاني الزائدة:

ونحن في البلاغة لا نشـــتغل إلَّا على المعاني الزائدة، المعاني الإضـــافية، المعاني السياقية، وهذه معانٍ متنوعةٌ ومتجددةٌ.

فبالتالي لما يقول: "**الفصـــاحة هي البيان، والبيان هو الظهور**" نقول: الفصـاحة ليسـت ظهورًا، الكلام الفصـيح ليس ظاهرًا، هذا معنًى لازمٌ؛ لأن (بان) ليس معناها (ظهر)، (بان) معناها: انفصل، ومنه البينونة في الطلاق، انفصـالٌ كاملٌ، (بان الشـيء): انفصـل، فـــ(الباء)، (الياء)، (النون) بمعنى انفصال شيءٍ عن شيءٍ.

يلزم من انفصـال الأشـياء أن تراها، أن تظهر؛ إذًا لما تفسِّـر الفصـاحة بالظهور نقول لك: انتبه! ليس هذا تفســيرًا بأصــل المعنى، وإنما هو تفســيرٌ بلازم المعنى.

ولذلك ستقرأ الآن في (المطوَّل):

"الفصاحة تُنبِئ عن الإبانة والظهور"

أنا ممكن أن أقول: الفصاحة الإبانة والظهور، كان من الممكن أن يقول الشيخ هذا.

☼ فلماذا يا سعد قلتَ: الفصاحة تُنبِئ؟ لماذا لم تقل: تدل؟

- السعد يعرف ما يقول! يعرف لماذا اختار كلمة (تُنبِئ)؟ الأصل في الإنباء أن يكون فيه خفاءٌ، وأن يكون ذا أمرٍ جللٍ، مثل: فرقٌ بين الخبر والنبأ، إذًا كلمة (فصاحة) لا تدل على معنى الإبانة ومعنى الظهور دلالةً ظاهرةً، وإنما قد يكون الشيء فصيحًا، ولا يدلُّك على المعنى دلالةً ظاهرةً، وإنما فيها شيءٌ من الخفاء.

فإذا جاءتك كلمةٌ لم يظهر لك معناها فاحذر أن تحكُم عليها بأنها غير فصيحةٍ! لأنها ما أخبرت عن المعنى، لكنها أنبأت عنه، دلَّت عنه في خفاءٍ، ولا يُخْفَى إلَّا جليلٌ أو شيءٌ ذا قيمةٌ!

ألا ترى أن الثرى ظاهرٌ تدوسه بقدمك بينما الذَّهب في أعماق الأعماق؟! فكل ما عظُم لا يظهر.

ومن هنا طُلب من المرأة أن تكون في خفاءٍ: ﴿**وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**﴾[النساء:1]. هل قال كثيرات؟ لا لم يقل كثيراتٍ مع أن عدد النساء

دائمًا أكثر من عدد الرجال، فلِم وصـــف الرجال وهم قُلٌّ بأنهم كُثر؟ قال: لأنهم كثيرٌ في مرأى العين، أما النســاء -وإن كن كثيراتٌ- فلأن أمرهُن مبنيٌّ على الستر والخفاء.

فإذا سِـرتَ في قريةٍ، أو مدينةٍ، أو سـوقٍ، ورأيتَ أكثر مَنْ فيها النســاء فاعلم أنها إلى ضياعٍ! فلتفهم المرأة لماذا جعل الله من شأنها أن تكون خفيةً! ليس تجهيلًا لها!

حتى كلمة (نساء) معناها التأخُّر، أليس (النسيء) يعني التأخير؟ معناها الأصـــل فيها أن تكون متآخِرة؛ وإذا كانت متآخِرة كانت خفيةً، عرفنا لماذا تصلِّي النساء خلف الرجال؟ هذا تكريمٌ للمرأة!

فلما يقول "**تُنبِئ**" فهو قاصدٌ أن كل الكلمات التي لا تُخبِر عن معانيها، ولم تتجلَّ لك معانيها إذ قرأتَ، وإذ حاولتَ، فحذار أن تصـفها بأنها غير فصيحةٍ!

ما يُسمَّى غريب القرآن، وغريب الحديث ليس صحيحًا:

كل ما قيل عنه في القرآن بأنه غريب القرآن، وفي الحديث بأنه غريب الحديث، ما هو غريبٌ، أنت الغريب! فبالتالي هي كلماتٌ فصـيحةٌ لكن لما كنا نحن لسنا بأهلٍ أن ندرك ما خفي ظننا أنها غير فصيحة!

فعليك –على الأقل– حتى تكون عدْلًا أن تقول: ليست فصيحةً عندي، لا تقل: ليست فصيحةً؛ لأنك لو حكمتَ عليها بأنها ليست فصيحةً حكمتَ على ذاتها، مع أن عدم الفصاحة جاء من قِبَلك؛ فإذًا أنت ظالمٌ لها! وظلمك للغة كظلم المتكلِّم بها! لا تكن ظالِمًا لشيءٍ؛ فلا تحكُم عليها هي، احكم على موقفك أنت منها.

ولذلك سيدنا معاذ، قال: "**أحكُم بكتاب الله**" هل قال: فإن لم يوجد؟ أم قال: "**فإن لم تجد**"؟ قال: "**فإن لم تجد**"؛ يعني هو موجودٌ، الواقعة التي أمامك التي ستحكُم فيها حُكمها موجودٌ في الكتاب والسُّنَّة، فقال: "**فإن لم تجد**" وليس: فإن لم يوجد.

فهناك فرقٌ بين "**لم تجد**" و(لم يوجد)؛ لأن هذا سيكون حُكمًا على القرآن وعلى السُّنَّة بأن ثمَّة وقائع في الحياة ستكون وليس لها ما يقيم أمرها في الكتاب والسُّنَّة؛ وبالتالي نذهب إلى القول بتاريخية النص!

أتعرفون قول تاريخية النص؟! أيْ نصٌّ كان لزمانٍ! ولم يعُد هذا النص في هذا الزمان!

☼ **في هذه الحالة لما يقول: الفصاحة تُنبِئ عن الإبانة والظهور، لِم عطفتُ الظهور على الإبانة؟**

- انتبه! ليس كل مبينٍ عن شيءٍ ظاهرٍ؛ قد يبين الشيء عن الشيء ولا يكون ظاهرًا؛ إذًا ليست الإبانة يلزمها الظهور لزومًا بيِّنًا لا ينفك كما تقول المناطقة، فقد يكون الشيء بائنًا عن شيءٍ ومع ذلك ما يزال خفيًّا:

- **فإن أبان ولم يظهر فهو فصيحٌ.**
- **وإن أبان وظهر فهو أفصح.**

إذًا الفصاحة تُنبئ عن الإبانة، فإن لم تكن إلَّا الإبانة، ولم يترتَّب عليها ظهورٌ فهو فصيحٌ.

☼ وماذا لو ترتَّب عليها ظهورٌ؟

- يقول: لو ترتَّب عليها ظهورٌ تحوَّلت من كونها فصيحةً إلى كونها أفصحَ.

الفرق بين اللغة العربية الفصيحة، واللغة العربية الفُصحى:

اللغة العربية الفصيحة: هي التي نستعملها في الكتب.

اللغة العربية الفصحى: هي التي في القرآن الكريم، وعند الشعراء.

أحببتُ أن أدقِّق في كلمة "تُنبِئ" لكي أجعلك -وأنت تقرأ- لا تمر عليها مرورًا عابرًا، هل يصلُح أن تدخل مجلسًا به ثلاثةٌ، تترك الأول لا تسلِّم عليه، وتسلِّم على الثاني؟!

أنت قرأتَ الفصاحة، وقرأت "**تُنبِئ**"، لماذا مررتَ عليها وانصرفتَ؟ لماذا لم تحاورها؟ لماذا لم تقل للسعد: لماذا قلتَ "**تُنبِئ**"؟ لماذا لم تضع نقطتين فوق بعضهما، وقلتَ: الفصاحة الإبانة والظهور، وبالتالي السعد لما نقل العبارة من معجم اللغة –معنى كلمة فصاحة– لم يجدها بنصِّها، تصرَّف فيها بما يليق بتخصصه.

فهو لم يقل: الفصاحة: الإبانة والظهور ومضى، فلو قال هذا نقول له: أنت في هذه الحالة ناقلٌ غير فاقهٍ لتخصُّصِك، أنت يلزم أن تستخدم كلمةً يفهم منها الناس ماذا تقصد.

يقول: أنا أقصد أن الكلمة قد تكون فصيحةً، وبرغم ذلك لا يظهر معناها لك، يظل معناها خفيًّا، مثل قوله تعالى:

﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾[عبس:31].

﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ**﴾[الانشقاق:14].

في الآيات المذكورة لم يظهر معنى الكلمة لابن عباس كما تأتي الروايات، أيستطيع ابن عباسٍ أن يقول: أن الكلمة غريبةٌ ليست فصيحةً؟! لا، بدليل أن غيره قد فهم معناها، ما دام هناك مَنْ فهم معناها إذًا الكلمة فصيحةٌ، فلا تجعل من نفسك مقياسًا على اللغة.

قول الشافعي عن اللسان العربي:

شيخنا الشافعي يقول عبارةً من أمتع ما قال، يقول: (**واللسان العربي أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا**) انظر الدقة! جعل للمذهب اتِّسَاعًا، وجعل للألفاظ كثرةً.

معنى قول الشافعي أن: (**اللسان العربي أوسع الألسنة مذهبًا**) يعني طرائق إبانةٍ، مذهب يعني طريق إبانةٍ، لا توجد لغةٌ على ظهر الأرض تمنح المتكلِّم الخرِّيت اقتدارًا على أن يقول ما يشاء كما يشاء كاللغة العربية!

فإذا رأيتَ أحدًا يرى أن في العربية ما يحجِّمه، سواء في باب العلم، في باب الأدب، في أي بابٍ، فاعلم أنه ضعيفٌ في العربية.

لما يقول: لا يصلُح أن أدرِّس الطب بالعربية؛ لأن العربية غير قادرةٍ على الوفاء بالمصطلحات العلمية! أقول: أنت الذي لست بقادرٍ.

التدريس بكلية الطب في سوريا كان باللغة العربية:

كانت -في سوريا- كليَّات الطب تدرُس بالعربية، ولم يكن الأطباء السوريين بأدنى درجةٍ من أي طبيبٍ عربيٍّ!

بل أشد من هذا، الرجل الذي ما كان يعرف يتكلَّم بالعربية -محمد علي باشا- مؤسس الدولة العلوية، لما أُنشئت كلية الطب أصر على أن

يدرس الطلَّاب الطب باللغة العربية، وهو رجلٌ لا يعرف العربية، لكن هو أراد أن يجعل لغة الإسلام، الدِّين الذي يدين به أن تكون له الصيرورة.

ثم يقول:

"فَصُح الأعجمي وأفصح"

هل الأعاجم ليسوا فصحاء؟ أليسوا فصحاءَ في لغتهم؟ أكُلُّ أعجميٍّ غير فصيحٍ؟ وكل عربيٍّ فصيحٍ؟ لا، كل مَنْ تكلَّم بلغته فهو فصيحٌ، وكل مَنْ لم يتكلَّم بلغته فليس بفصيحٍ، فالعربي ليس بفصيحٍ إذا تكلَّم بالإنجليزية، والهندي إذا تكلَّم بالهندية فهو فصيحٌ عند قومه، فهو أعجميٌّ بالنسبة لمخاطَبه، لمن يسمع هو أعجميٌّ، أنا أعجميٌّ بالنسبة لبعض طلاب العلم في الجامعة.

إذًا لما يقول: "**فَصُح الأعجمي وأفصح**": يعني لا أنه تكلَّم بلغته، حين كلَّمنى بالعربية صار فصيحًا، فهمنا هذه العبارة؟ إذًا تقيِّدها هكذا: "**فَصُح الأعجمي وأفصح**" حين يتكلَّم بالعربية، ليس حين يتكلَّم بلسانه.

ابن جني حين تكلَّم بالعربية كان فصيحًا، لكنه حين تكلَّم بالرومية؛ أصلًا هو فصيحٌ، أبي عَلِيٍّ الفارسي حين يتكلَّم بالفارسية –وهي لغته– كان أصلًا فصيحًا، وحين تكلَّم بالعربية كان فصيحًا.

فلا تقل عن أحدٍ يتكلَّم بلغته إنه فصيحٌ، الأصل فيه أن يكون فصيحًا، لكن حين يتكلَّم بغيرها، أيُعَدُّ عند أهل هذه اللغة فصيحًا؟ إن كان؛ فهذا يُسمَّى: "**فصُح الأعجمي أو أفصح**".

إذًا حتى لا يُقال: أنتم تسبُّون غير العرب، لا نَسُبُّ غير العرب، نحن نقول: إن الذين لا يتكلَّمون بالعربية إذا تكلَّموا بها وأفصحوا قلنا: أفصح الأعجمي، وإذا تكلَّم العربي بالإنجليزية قلنا: أفصح العربي، أو القُرشي.

"**إذا نطق أنطق لسانه، وخلُصت لغته من اللُكنة**"

هو لن تكون عنده لُكْنةٌ حين يتكلَّم بالهندية، متى تكون اللُكْنة؟ إذا تكلَّم بالعربية، أنت لن تكون ألْكَن إذا تكلَّمت بالعربية، إن تكلَّمتَ بالفارسية أو الفرنسية ستكون ألْكَن؛ فكلمة لُكْنة قرينةٌ قطعيةٌ على أنه يريد أنه أفصح حين يتكلَّم بغير لسانه.

إذًا تعاملوا مع هؤلاء العلماء الكبار على أنهم حُكماء! يزنوا الكلام! يعرف معنى الكلمة التي يقولها، حتى وإن كان يتكلَّم شفهيًّا، هو بدُربته، بملَكته يستخدم الكلمات استخدامًا دقيقًا.

يقول:

"**ويوصف بها المفرَد، ويوصف بها الكلام،**

ويوصف بها المتكلِّم"

قبل أن ندخل في هذا الإشـــكال نريد أن نعرف جيدًا أن عندنا نوعان من الفصاحة: فصاحةٌ ذاتيةٌ، وفصاحةٌ سياقيةٌ:

- **الفصاحة الذاتية**: أن الكلمة في ذاتها لا عيب فيها على الإطلاق.
- **الفصاحة السياقية**: أن توضع الكلمة في سياقها، فمع أنها في ذاتها فيها عيبٌ، لكن لما وُضـعت في سـياقها زال العيب، إذًا هي خارج السـياق -فريدة- قد تكون معيبةً، فيها تنافُر، فيها غرابةٌ، فيها مخالفةٌ للقياس.

ما رأيك أن في القرآن الكريم كلماتٍ مخالفةً للقياس الصَّرفي؟! ففي قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾[المجادلة:19]. كلمة ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ عندنا قاعدة تقول: إذا تحرَّكت الواو قُلبت (ألفًا)، سـينقل فتحة (الواو) ويضـعها على الحرف الـذي أمـامهـا، فمُقتضـــى الظـاهر أن تقلـب (ألفًـا) فيقول: استحاذ، هذا هو منطق القياس.

لكن ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ مخالفةٌ للقياس، أفصيحةٌ أم غير فصيحةٍ؟ طبعًا أنت -خوفًا- سـتقول: فصـيحة، نقول لك: لا، لا تحكُم عليها حُكمًا فقهيًّا، اخرج من كلية الشريعة:

☼ تعال إلى اللغة العربية: أفصيحةٌ أم غير فصيحةٍ؟

- تقول: جعلها السياق فصيحةً، لكنها في ذاتها مخالفةٌ للقياس، وليس كل مخالفٍ للقياس بِمُجَرَّمٍ!

ألا ترى أنك قد تقتل إنسـانًا عمدًا فلا تُعاقَب؟ خالفتَ القانون أم ما خالفتَ القانون؟ لكنك لأمرٍ ما قتلته، فليست مخالفة القواعد دائمًا تُجَرَّم.

ليسـت مخالفة قياس الصَّـرف دائمًا عيبٌ، إذا اقتضـى المقام أن تخالِف فخالِف، اقتضى المقام أن أمشي بالعكس لأنقذ حياة واحدٍ، يلزم أن أنقذه، ففي هذه الحالة نقول لك: لا حرج عليك!

عندنا إذًا فصاحةٌ ذاتيةٌ، البلاغيون يقولون: نحن نريد –في الأصل– أن الكلمة والكلام في ذاته –بمفرده– خارج السـياق لا عيب فيه، يريدك وأنت وحدك في بيتك لا عيب فيك، وأنت في مجتمعك أيضًا لا عيب فيك، فهذا هو المستوى الأعلى الذي يريده.

طيب، فإذا لم يتحقق هذا المسـتوى الأعلى؟ وهو فريد فيه عيبٌ، لكنه حين يندرج في سياقه لا يكون فيه عيبٌ.

☼ هل ستحكم عليه بأنه فصيحٌ أم غير فصيحٍ؟

- يقول: أحكُم عليه بأنه فصيحٌ سياقيًّا.

فعندنا كلماتٌ في القرآن الكريم خارج سـياقها صـعبة، أستاذنا الشـيخ سيد –رحمه الله– لما تكلَّم في الآية: ﴿**تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾[النجم:22]. خارج الآية الكلمة قبيحةٌ، صعبةٌ جدًّا! لكن داخل الآية قال: لا تصلح إلَّا هي، لا يصلُح أن نقول: قسمةٌ ظالمةٌ، لازم تبلغ هذه الغرابة في الظلم! ظلمٌ

ليس له نظيرٌ! لم يعهده أحدٌ، ما دام لم يعهده أحدٌ لا يصلُح معها (قسمةٌ ظالمةٌ) لأنها تكون ظالمةً ولو كانت زائدةً بالقليل جدًّا! إذًا ﴿ضِيزَى﴾ معناها أنها قسمةٌ جائرةٌ جورًا لا نظير له البتَّة! إذًا لن تصلُح إلَّا هذه الكلمة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾[الشمس:11]. بطغياها أم ﴿بِطَغْوَاهَا﴾؟ مع أنها يائيَّة وليست واويَّة، فلما كان طغيانها لم يبلغ أحدٌ كمثل ما بلغت جاء بالصوت الأقوى، فـ(الياء) حرفٌ ضعيفٌ، لكن (الضمة) و(الواو) من أقوى الأصوات، فما دام من أقوى الأصوات، ونحن نريد أن نصوِّر هذا الطغيان الذي ليس له نظيرٌ نأتيها بأقوى الأصوات ﴿بِطَغْوَاهَا﴾.

أصوات الكلمات مُصوِّرةٌ للمعاني:

لازم أن تقرأوا هذا الكلام عند ابن جني، مسألة أن أصوات الكلمات أصواتٌ مُصَوِّرةٌ للمعاني: (قَسَم)، (قَضَم)، (قَصَم)، كلها (سين)، (صاد) متقاربات، فما الفرق؟ يقول: الفرق في مستوى الـ(هزَّ) الهمزة حرفٌ قويٌّ حلقيٌّ يَرِن، و(الهاء) حرفٌ مهتوتٌ، وهو الحرف الوحيد المهتوت، يعني ضعيفٌ ضعفًا بالغًا، فـ(الهز) شيءٌ و(الأز) شيءٌ، (الأز) أقوى؛ فلما كان أقوى جيء له بـ(الهمزة)، إذًا قد نخالف المعهود، ونأتي بصوتٍ مخالفٍ للمعهود؛ لأننا نريد أن نصوِّر حدثًا غير معهودٍ، انظر العدالة حتى في الأداء!

لازمٌ لكل شــيءٍ أن يكون متناســقًا، بينهما توافق؛ لأن الله يريد حتى ونحن نتكلَّم أن تكون أصواتنا متوافقةً مع بعضـها، وظيفية، كل شـيءٍ يُؤتَى به فيما يمكن أن يؤدِّي المراد به.

فلو كلمة ﴿**بِطَغْوَاهَا**﴾ جاءت بـ(الياء) لدخـلت في باب: وُسِّـد الأمر إلى غير أهله! أُسنِد التصوير الصـــوتي بـ(الياء) إلى معـــنًى هو ليس بأهله! فالأحق به هو (الواو) فجيء بها.

هو يعلِّمني، فأنا أســتمد حُكمًا فقهيًّا، أو أطبِّق حُكمًا فقهيًّا من الأصـــول أو من الفقه على ﴿**بِطَغْوَاهَا**﴾ أن (الياء) هنا لو جيء بها لكان إسنادًا للأمر لغير أهله، وهذا لا يجوز؛ فبالتالي لا بد أن تأتي بـ(الواو).

تتعامل مع كل الكلمات التي ترى أن فيها مغايرةً، فيها مخالفةٌ، غير معهودةٍ، ابحث عن المقتضِـــي؛ لأن البلاغة هي البحث عن مقتضـــيات الأقوال والأفعال.

مثلًا مولانا الشـــيخ يرتدي تاج العُلماء، لو جاءنا –في يومٍ– يلبس مغربيًّا؛ لازم نسأله: ما المقتضِي؟ لأنك خرجتَ عن المعهود، فلازم أن يكون هناك باعث على الفعل؛ وإلَّا فعلتَ دون مُقتضٍ، فأنت غير بليغٍ.

فالبلاغة، أو جوهر البلاغة التي هي أن تكون الأشـــياء نازلةً على ما يقتضـيها، الموقف يقتضـي أن تُصَـرِّف صـرِّف، الموقف يحتاج هذا، هذه

بلاغةٌ، وليست البلاغة فقط فيما تشقشِق الألسنة، البلاغة أيضًا فيما تفعله الجوارح، يكون بليغًا في فعله كما هو بليغٌ في نطقه.

لازم أن تنقل هذه الأصـــول الجمالية من عالم البيان لتقيمها في عالم الإنسان، الرسول –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم– وضع لنا عِلم الجمال السلوكي، نحن ندرُس في البلاغة علم الجمال اللساني، فأستطيع أن آخذ من أحاديث رسول الله –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم– ما يتعلَّق بعلم الجمال السلوكي، وأضعه في علم البلاغة.

لما أسمعه –عليه الصــلاة والســلام– يقول: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». نقول: هذا الحديث هو حجر الأســاس الذي أقيم عليه باب الفصــل والوصــل في علم البلاغة، لا نحتاج أرســـطو، ولا غيره، نحن عندنا حديث يقول: إذا تعارفت المعاني تآلفت، وإذا تناكرت اختلفت.

وحديث: «**أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهم**». هذا حجر الأساس في باب التقديم والتأخير، أين تضــع الكلمة؟ في الأول؟ أم في الآخر؟ أم في الوســط؟ أنزل الكلمة والجملة والمعنى منزلتهم.

لهذا فإن الطلبة عندنا الذين يعدُّون بحوث في النصوص الشعرية وغيرها، أقول له: انتبه أن يكون تركيزك على مســألة موضــع المعنى، ليس ما المعنى؟ أين وضعه؟ ما سِباقه؟ ما لِحاقه؟ هذا أهم عندي!

ليس الأهم أنك تعرف ما معنى سورة الكوثر؟ الأهم أن تعرف لِمَ وُضعت هنا؟ أيمكن أن توضع قبل سورة الماعون؟ لِمَ؟ أيمكن أن توضع بعد سورة الكافرون؟ لِمَ؟

إذًا مواضع الأشياء، وضعُها في موضعٍ معين، المعنى أو الكلمة هذا عَصَب الأمر عندنا! فنحن أخذناه وأسسناه على حديثٍ نبويٍّ، كان يقيم فيه جمال السلوك الإنساني!

وعالم البيان كمثل عالم الإنسان، ما يحسُن في عالم الإنسان يحسُن في عالم البيان، وما يقبُح في عالم البيان يقبُح في عالم الإنسان، وهما عالَمان متآخيان، معايير الحُسن هنا هي معايير الحُسن هناك، فمن يفقه اللسان يستطيع أن يفقه عالم الإنسان.

وهذا الذي جعل ابن جني –وهذا مهمٌّ وأنت تقرأ هذا الكتاب– يبرز خصوصية الجنس العربي، هو رجلٌ روميٌّ، ويجيد الفارسية، وشيخه فارسيٌّ، لو تكلَّم عن العرب لوجد منازعين من الفُرس أو من الروم، فماذا يفعل؟ يريد أن يبرز هذا الجنس العربي!

يقول: أنا سأتكلَّم عن خصائص اللسان العربي التي لا يمكن أن ينازعني فيها الفارسي، لماذا؟ سآتي بلغته وأقول له: هذه الخصيصة التي في لغة العربي ليست عندك، ولو كانت عندك أخرجها، فلن يخرجها فيسلِّم!

ويأتي الرومي فيقول: هذه الخصيصة في العربية ليست عندك أخرِجها، فلا يخرِجها، فوجب عليه أن يسلِّم!

يقول: الخصائص التي في هذا اللسان هي خصائص مَنْ تكلَّم بهذا اللسان، وبالتالي هو كتابٌ في بيان خصائص الجنس العربي، مع أنه ليس عربيًّا!

☼ لماذا تكلَّم ابن جني عن خصائص اللسان العربي مع أنه ليس عربيًّا؟

- يقول: لكي أقول لك: لِمَ نزل القرآن على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؟ وعلى أمَّة العرب؟ ولو أن القرآن أنزل على غير رسول الله، أُنزل على عيسى، على موسى، لما فَعل فِعله الذي فَعله حين نزل على محمدٍ! ولو أُنزل القرآن في أمَّة الروم لما فعلت الروم بالقرآن كما فعلت العرب!

☼ من أين جئتَ بهذا الكلام؟

- اقرأ أول سورة الكهف، ستجد الله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا (1) قَيِّمًا**﴾[الكهف:1،2]. ولذلك قدَّم، كان مقتضى الظاهر أن يقول: أنزل الكتاب على عبده.

عندنا في الآيتين حمدٌ، حمدٌ على كم شيءٍ؟ ربنا يطلب منك أن تحمده على كم شيء؟ اثنين أم ثلاثة؟ خمسة أشياء للحمد في الآيتين:

(1) **الحمد لله حمدٌ على ذاته**: تحمَده لأنه إله، فقط حتى ولو لم ولن يعطيك شيئًا! منع عنك الهواء؛ فهو مستحقٌّ لأن يُحمَد لأنه إلهك.

لذلك كلما سمعتَ كلمة (الحمد لله) قف عندها، أوفَّيْتَ لله حمده على ذاته؟ أم أنك تحمده لأن المرتب زاد؟ لماذا لا تحمَده إذا نَقص؟ إذًا أنت في هذه الحالة لم توفِّ لله حمْده على ذاته!

فكلمة (الحمد لله) يعني من حيث هو إلهٌ يستحق كمال الحمد! فكيف إذا ما كان مع استحقاقه الذاتي للحمد يستحقه لعطاءاته؟!

(2) **الحمد لله على نعمة إنزال الكتاب.**

(3) **الحمد لله على نعمة إنزال الكتاب على محمدٍ**: لو كان أنزله على غيره لكانت النعمة ناقصةً.

(4) **الحمد لله على نعمة أنه لم يجعل للكتاب عِوجًا.**

(5) **الحمد لله على نعمة أنه تعالى جعل هذا الكتاب قيِّمًا على كل الكتب.**

☼ **ما الذي سأستفيده أنا من كل هذا؟**

- يقول: إذا كان الله تعالى قد اصطفى أفضل ما في عالم الأمر؛ الذي هو القرآن، فأنزله على أفضل وأصفى مَنْ هو في عالم الخَلْق؛ وهو سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنزله لأمَّةٍ هي أصفى الأمم.

ولذلك لما يكلِّم النبي -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يقول: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾ [آل عمران:7].

ولما يكلمنا نحن يقول: ﴿أَنزَلَ إِلَيْكُمُ﴾[الأنعام:114].

القرآن أنزل إلينا، لم يُنزل علينا، ولكنه أُنزل على سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء:193،194].

والرسول -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أوصله إلينا كاملًا؛ لأنكم الأمَّة الأقدر على أن تجعل هذا القرآن فاعلًا في بقية الأمم، فلو نزل القرآن على الروم لما فَعلت الروم بالقرآن كما نفعل نحن.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[الزخرف:44].

ما معنى: ﴿لَذِكْرٌ﴾؟ يعني شرفٌ لك، ولقومك لأنه نزل بلسانك: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ تُسألون عن ماذا؟ عن حق هذا الشرف، فجعل كل مسلمٍ من غير العرب تابعًا لكم، ولم يجعلكم تابعين لأحدٍ في دِينكم، أعظم شيءٍ أنه لم يجعلكم تابعين لأحدٍ في دِينكم؛ فوجب عليكم ألَّا تكونوا تابعين لأحدٍ فيما دون الدِّين.

لما يتكلَّم عن الفصاحة هنا سيكلِّمني فقط عن الفصاحة الذاتية، وليست الفصاحة السياقية.

☼ لماذا سيتناول الفصاحة الذاتية فقط دون السياقية؟

- قال: لأن القول في الفصاحة الذاتية قولٌ علميٌّ منضبطٌ، أما القول في الفصاحة السياقية فقولٌ يرجع إلى طاقاتك وقدراتك.

بعض أمثلة للفصاحة السياقية:

كلٌّ واحدٍ يدرك مستوى الفصاحة السياقية، لكن كلنا يعرف أن كلمة: (أبواقٌ لها وطبولٌ)، أن كلمة (أبواقٌ) مخالفة للقياس، لكن لسنا كلنا ندرك لماذا قال المتنبي على هؤلاء الناس: (أبواق)؟ ولم يقل (بوقات)؟

وقال: (نواكس الأبصار)، قال: (نواكس)، وهذا مخالفٌ للقياس، المفروض أن يقول: (ناكسوا الأبصار)، لكن هو خالف، جمعها جمع مؤنث سالم، مع أنه يتكلَّم عن الرجال؛ فوصفهم بوصف النساء!

لما نقيم ندوة للشعراء عندنا، ويقوم رجلٌ بعمل إعلانٍ عن الندوة، ويكتب: (ندوة لشواعر العرب)، ويكون مَن سيحضر الندوة شعراء رجال، نقول له: أنت تسيء لهؤلاء الرجال! تقول لهم: أن شعرهم شعرٌ مُخَنَّثٌ! لأنك قلتَ: (شواعر)، وشواعر جمع شاعرة، فاطمة الفواطن، وجمع شاعر:

شعراء، فلِم وصفتهم بجمع المؤنَّث؟ قال: نظرًا إلى منتجهم الشعري، وهذا هو الذي فعله المتنبي، لما قال: (نواكس الأبصار)، جعلهم نساءً!

☼ فهل هو خالف القياس تمردًا على اللغة؟ أم طلبًا لأمرٍ خفيٍّ؟

- طلبًا لأمرٍ خفيٍّ، الكلمة غير فصيحةٍ ذاتيًّا، لكنها قمة الفصاحة السياقية! وهذا يفهمه المتنبي وأمثاله، ممكن الذين كان يُقال لهم -أو يُقال فيهم- ما كانوا يفهمون ذلك!

كما قال: "**أوَتَرَاني أكتب الشعر لهم**"؟ لما ابن الجني قال له: "**أيفهم أولئك الخلفاء والأمراء ما تقول من الشعر**"؟ قال: "**أوَتراني أكتب الشعر لهم**"؟ إنما أكتبه لأمثالِك.

يكتبه لطلبة العلم، لا يكتبه للممدوحين، هو يعرف أن كافور لا يفهم، ويقول فيه شعرًا! لا يكتبه له؛ هو يسجل تاريخ الأمَّة المصرية.

"ويوصف بها المفرَد"

كلمة (فصاحة): قد توصف الكلمة الواحدة بأنها فصيحةٌ فصاحة ذاتية، وقد يُوصف المتركَّب فصاحة ذاتية، وقد يوصف المتكلِّم بأنه فصيحٌ، لكن الفرق بين أن أقول: كلمةٌ فصيحةٌ، وكلامٌ فصيحٌ، عن قولنا: متكلِّمٌ فصيحٌ أن صيغة (فعيل) مع الكلمة، ومع الكلام، تكون بمعنى (مفعول)،

ومع الإنسان تكون بمعنى فاعل، مُفصِح؛ إذًا كلمةٌ فصيحةٌ أي: مُفصَحٌ عنها، أو مُفصحٌ بها، لكن فلانٌ فصيحٌ أي: مُفصِحٌ عمَّا في فؤاده.

إذًا الصيغة الواحدة قد تأتي بمعنى كذا، وقد تأتي بمعنى كذا، وهذا اتساع المذهب عندنا، مذاهب الأداء العربية، كلمةٌ واحدةٌ تستطيع أن توفر لك أكثر، فعندنا في اللغة أن الكلمة الواحدة تستطيع أن تؤدي لك عدة أغراضٍ في آنٍ واحدٍ، المهم أن تكون أنت مُحسِن استعمال هذه الكلمة.

ثم يقول:

"والبلاغة تُنبِئ عن الوصول والانتهاء"

أيضًا عطف الانتهاء على الوصول، يقول: العلَّة هي نفس العلَّة، قلتُ لك هناك: تُنبِئ، وقلتُ هنا: تُنبِئ، وعطفتُ هناك الظهور على الإبانة، وقلتُ لك: ليس بكلِّ مبينٍ ظاهرٌ، وهنا أيضًا: ليس كلُّ منتهٍ واصِلًا:

يعني أنا ممكن أقول: أنا وصلتُ، أنا في الشارع أمام باب مكتب فصيحٍ، فأقول: وصلتُ فصيحًا، لما أدخل هنا أكون: انتهيتُ إليه، إذًا:

- **الانتهاء دخوله في الشيء.**
- **والوصول أن تبلغ أوَّله.**

تقول: وصلتُ القاهرة وأنت في باب الحديد، لم تخرج من الرصيف بعد، لكن ذهبت إلى شارع بور سعيد، إذًا أنت هنا لم تصل القاهرة فقط، أنا هنا انتهيتَ إليها.

يقول: الكلام البليغ قد يصل إلى أول المعنى؛ ولكن لا ينتهي إليه؛ فلا تحرمه من أن يكون بليغًا، إذًا ليس بلازمٍ أن يكون البليغ قد انتهى إلى أعماق أعماقك، ولكن قد يمس شِغاف قلبك، فكلُّ مَنْ مسَّ شِغاف قلبك بكلامه فهو بليغٌ، ولكنه في الدرجة الأولى.

أما أن يقول لك كلامًا يسيطر به عليك، ويستعبدك به، فهذا لم يصل فقط وإنما انتهى؛ لأن البلاغة أداةٌ من أدوات غزو القلوب، الكلام هذا سلاحٌ.

يقول:

"**والبلاغة تُنبِئ عن الوصول والانتهاء**"

ولكن يوصف بها فقط الكلام والمتكلِّم، أما الكلمة فلا يُقال أنها كلمةٌ بليغةٌ إلَّا إذا أردتَ بالكلمة مجموع الكلام، قال تعالى:

﴿**قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ** (99) **لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ [المؤمنون:99،100].

انظر كم كلمةٍ قالها؟ ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[المؤمنون:99،100]. سبع كلماتٍ.

والقرآن يقول: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾[المؤمنون:100]. قال: ﴿كَلِمَةٌ﴾ ولم يقل: كلام، في حقيقتها كلامٌ، لكن القرآن قال: ﴿كَلِمَةٌ﴾ نظرًا إلى ماذا؟ إلى سهولتها عليه.

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[الكهف:5]. مع أنهم يقولون كلامًا وصفه تعالى بأنه: ﴿إِدًّا﴾ في سورة مريم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾[مريم:89]. ومع ذلك يقول: ﴿كَلِمَةٌ﴾[الكهف:5]. لأنها يلقونها كما يلقون الكلمة دون تبصُّرٍ لحالها ولفِعلها!

فالكلمة، قد يُقال: فلانٌ ألقى كلمةً في المحفل، هل قال كلمةً واحدةً؟ لا، ولكنها إما أنها كانت على قلوب الناس كالكلمة، وإما أنه لا يلقي لها بالًا وكأنه يقول كلمةً واحدةً ولا يدرك ما يقول! هذا يسمونه الكلام الموَجَّه:

خَاطَ لِي عَمْرٌو قِبَاءَ لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءٌ

الرجل كان أعورًا، فهل يدعو للخياط؟ أم يدعو عليه؟ يدعو عليه، لا يدعو له، فهذا اسمه الكلام الموَجَّه.

عندما تقول لأحدٍ: أنتَ هَمِّي، من الممكن أن يفهم الكلام على غير ما تقصِد، أنت تقصد أنه الشيء الذي تهتم به، وليس لك همٌّ سواه.

"والبلاغة تُنبِئ عن الوصول والانتهاء، يوصف بها الأخيران؛ أي الكلام والمتكلِّم فقط"

انظر لكلمة "**فقط**" لم يُرِد أن يدَعها مع أنها ممكن ألَّا تُقال، لكن انظر ماذا سيقول لك بعد "**فقط**":

"فقط من أسماء الأفعال، المعنى الثاني: وكثيرًا ما يُصدَّر بـ(الفاء) تزيينًا للفظ، وكأنه جزاء شرط المحذوف، فإذا وصفتَ بها الأخيرين فقط، أي فانتفع الوصف الأول بها"

هل استفدنا شيئًا من هذا الكلام؟ كان من الممكن أن يقول: "**فقط**" وانتهينا، فلماذا وقف عندها؟

لازم تقف عند مثل هذه الأشياء! لماذا الرجل يلفت انتباهنا إلى أصل الكلمة؟ وما المراد منها؟ ولِمَ جِيء بها هنا؟ وما الذي يترتَّب على أنني لم أنتهِ، يقول: اسم فعلٍ، أليس كذلك، اسم فعل أمرٍ؛ فعندنا أسماء الأفعال قد تكون اسم فعل أمرٍ، قد تكون.. انتبه! لما أعبِّر عن الأمر بفعل أمرٍ، له صيغتان:

- **له صيغة (افعَل).**
- **وله صيغة (لتفعل).**

وقلنا أن صيغة (افعل) أقل درجةً من صيغة (لتفعل)، واسم فعل الأمر أقوى من (لتفعل)، لماذا؟ لأنه أخذ من الاسمية قوتها، فهو جمع بين قوتين:

- **أداء الفعل.**
- **وأداء الاسم.**

فكـان أقوى من الفعـل، أقوى من كلمـة (افعـل)، فلو قـال: (فـانتـهِ)، نقول: ليست أبلغ من كلمة (فقط) في هذا المقام.

في اختبـارات التعيين في الدراســـــات العليا، والطـالـب يقرأ، أقول لـه: (فقط)، أســـأله: ما معناها؟ يقول لي: معناها (فانتهِ)، أقول له: ماذا لو أن السعد قال: (فانتهِ) أكان بليغًـــــا؟ هذا لكي أقيس هل كان -هذا الطالب -لما يقرأ- يطبِّق قواعد البلاغة التي يفهمها؟

فهل (انتهِ) تصلُح أم لا تصلُح؟ كثيرٌ من الناس لا يفهم كلمة (فقط)، لكن يفهم كلمة (انتهِ)، فهي غريبةٌ على بعض الناس.

☼ **فلِم استعمل "فقط"؟**

- يقول: (انتهِ) فعل أمرٍ، بصـــيغة (افعل)، وقد تحتمل الوجوب، وقد تحتمل الإباحة، وهكذا، لك أن تنتهي، ولك ألَّا تنتهي، أليس كذلك؟

لكن لما أقول "**فقط**"، هل تســـمع هذا الـ(قَط)؟ يعني اقطع، إيَّاك أن تزيد! إذًا أخذتها من كلمة (قط)، وهي اسـم صـوت، لما تقطع بشـيءٍ قويٍّ تسمع هذه الـــ(قَط)؛ ولذلك حتى في الإنجليزية: cut؛ لأنها اسم صوتٍ، هذا القطع فيه قوةٌ أم فيه حنانٌ؟ إذًا هل تحتمل أن تكون لغير الوجوب؟

لكن (انتهِ) تحتمل أن تكون لغير الوجوب؛ فيحصُـــل أنك لو لم تنتهِ ستصـف بها الكلـــــــمة، ألم يقل: "**يوصـف بها الأخيران؛ أي الكلام والمتكلِّم**"؟ فإذا وصفتَ هذا وهذا "**فقط**" توقَّف.

- ماذا يحدث إذا لم أنتهِ؟

- يقول: ستصف الكلمة بأنها بليغةٌ، وحينئذٍ تكون قد جرَّدتَ البلاغة من جوهرها.

- يقول: ما البلاغة؟

- أقول له: مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

- يقول: هنا لامطابقة، ووصـــفتَ كلمة (اللامطابقة) فيها بأنها بليغةٌ، ووصـــفتَ الشـــيء لغير مســـتحقِه، ففي هذه الحالة وقعتَ في الظلم!

لهذا قال: "**فقط**" ولم يقل: (انتهِ)، هو يشـير لك أن الرجل العربي رجلٌ جماليٌّ، صحيحٌ هو حافٍ، ويسكن في خيمةٍ، لكنه يحب الجمال المعنوي.

نحن في المدن نحب الجمال الحِســـي؛ لأننا أهل مدنيةٍ، لســـنا أهل حضارةٍ، فالحضارة هي تقدُّم في عقلك وسلوكك ومعنوياتك، هذه حضارةٌ.

وبالتالي العربي في الجاهلية كان رجلًا متحضـرًا، ولكنه لم يكن متمدِّنًا، وأهل القاهرة والإسـكندرية، وعواصـم المحافظات أهل تمدُّن لا أهل تحضُّـرٍ،

يعشقون الجمال الحِسي، ولا يعشقون الجمال المعنوي، قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «**إيَّاكُم وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ**». الدِّمَن تمدُّن.

وقال تعالى:

﴿**وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**﴾[البقرة: 221].

مشركةٌ أعجبتكم تمدُّن، وأمَةٌ سوداء تَحَضُّر، فهنا جمالٌ معنويٌّ، جمالٌ سلوكيٌّ، بينما هناك جمالٌ حِسيٌّ.

فالإسلام يدعو إلى الحضارة، ولا يدعو إلى التمدُّن، فقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «**مَنْ أصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا في سربِهِ، مُعَافًى في جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**». قال: «**فِي سِرْبِهِ**» لم يقل: في بيته.

سمعتَ كلمة (سِرب) هذه؟ هل تعيش في سِربٍ؟ هل رأيتَ السِّرب قبل ذلك؟ السِّرب عبارة عن خندقٍ صغيرٍ، مثل الخنادق في الجيش، صغير جدًّا، يقول لك: إذا نمتَ في الكوخ الصغير هذا وأنت آمن، وعندك قوت يومك، قوت فقط، ثلاث تمراتٍ: «**فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**». مَنْ منكم لديه ثوبٌ واحدٌ؟! مَنْ منكم لديه حذاءٌ واحدٌ!؟ مَنْ لديه حقيبةٌ واحدةٌ فقط؟!

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: [**كَانَ يَمُرُّ بِنَا هِلَالٌ وَهِلَالٌ مَا يُوقَدُ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَارًا وَكَانَ طَعَامُنَا الْأَسْوَدَيْنِ**].

هل هما أسودان؟ هل الماء أسود؟ فلِم غلَّبَت اللون الأسود الذي هو لون التمر؟ لتقول لك: حتى الماء الذي نشرب ليس ماءً صافيًا! انظر تُغَلِّب ماذا على ماذا؟ كان ممكن أن تقول: إلَّا الماء والتمر، لكن كلمة الماء والتمر ليست بليغةً مع أنها تؤدي المعنى، ظاهر المعنى، لكنها تصل بك أول المعنى، شِغاف قلبك، لكن لا تصل إلى مرادها الذي تريد، تقول له: حتى الماء الذي نشرب لم يكن ماءً صافيًا، كان ذا لونٍ، وكان أسود.

مَنْ هذه؟! أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها! أما كان رسول الله -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قادرًا على أن يطعمها ما لم تطعم امرأةٌ على ظهر الأرض؟ فقط يدعو الله، يرفع يديه، ليس أكثر من أن يرفع يديه وينتهي، ليس أكثر من أن يأذن لعبد الرحمن بن عوف أن يأتي لها -كل يومٍ- بعجلٍ حنيذٍ، وكان سيفعل، لكن عائشة ما خُلِقت لهذا!

فأيهم أحب إليك وإلى زوجِك أن تكون ربيبة عائشة وخديجة؟ أم مَنْ تكون؟

يقول:

"والفاء تزيينٌ للفظ"

يعني العربي يميل إلى أن يزيِّن حتى الصوت؛ لأن كلمة (قط) بمفردها لا، يزينها بـ(الفاء).

عندنا كلمات تحتاج إلى أن تضيف إليها أحرفًا لا معنى لها سوى التزيين، لماذا؟ يقول: حتى تكون مأنوسةً في النَّفْس، فحين تأنس بها النَّفْس تفعل فيها؛ لأن الكلام لا يؤثر في القلب إلَّا إذا أَنِس به القلب.

تعريف الرُّمَّاني للبلاغة:

الرُّمَّاني لما تكلَّم ليفسَّر البلاغة قال: (**إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورةٍ من اللفظ**) يقول: لا توصِله إلى أذنه، أوصله إلى قلبه، ولما توصله لا توصله حجارةً! أوصله: (**في أحسن صورةٍ من اللفظ**) كلامٌ جميلٌ.

وهذا لأن النَّفْس الإنسانية الآدمية تأنس بالجمال، بالحُسن، فيلزم أن تأتي معانيك في ثوبٍ حَسَن حتى تأنس، فإذا أَنِست القلوب بالمعاني أذِنت القلوب للمعاني أن تعمل فيها، وهذا وجه أن تتعلَّم أن تكون بليغًا.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[النساء:63]. لها وجهان من المعنى، إما على التقديم أو على غير التقديم:

○ **الوجه الأول: على التقديم**: قل لهم قولًا بليغًا في أنفسهم، يعني يبلغ بهم حُماطة نفوسهم، سويداء قلوبهم، مع أن الآية جاءت في سياق القول على المنافقين.

○ **الوجه الثاني: على التأخير**: ﴿**وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ**﴾ كلِّمهم في شأن نفوسهم الخَرِبَة قولًا يكشفها لهم.

تغيَّر المعنى بمجرد أن أخَّرتُ وقدَّمتُ، أرأيت التقديم والتأخير؟! يغيِّر معك المعنى! هناك: قل لهم قولًا في أي موضوعٍ بحيث يكون هذا الكلام بالغٌ سويداء نفوسهم، حتى لو كنت تكلِّمهم في بيعٍ وشراءٍ.

التأويل الثاني لا يوجد تقديم: ﴿**وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ**﴾ فموضوع القول هو: ﴿**فِي أَنفُسِهِمْ**﴾؛ أي ستكلِّمهم في شأن نفوسهم الخَرِبَة، والكلام الذي ستقوله في نفوسهم الخَرِبة المنافقة قولًا بليغًا كاشفًا، ليعرفوا أنهم صاروا عرايا!

فبمجرد أن تنظر في الآية، أتحتمل أن تكون كذا؟ أتحتمل أن تكون كذا؟ وبالتالي تدرك أن دراسة مثل هذه الأساليب: التقديم والتأخير والترتيب، كل واحدةٍ منها يمكن أن تفيض عليك من المعاني ما لا يكون لك إذا لم تفعل؛ فإذا لم تفعل فإنما غبنْتَ نفسك!

والرسول -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يقول: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيعَ مَنْ يَعُولُ**».

وأول مَنْ تعول نفســـك، إذا حَرَمتها من توافُد جليل المعاني وجميلها وكميلها فقد حَرَمتها، وكنت لها ظلومًا وهي أمانةٌ عندك لربِّك، تعيدها كما أخذتها؛ هذا إذا ما أعدتها أحسن مما أخذتها.

الصــفحة الثانية: الخطيب القزويني لما عرَّف؛ عرَّف الفصــاحة والبلاغة كلٌّ على حدة، وعرَّف فصــاحة الكلمة وفصــاحة الكلام كلٌّ على حدة، عمل عملية تقسيمٍ، ثم عرَّف، المنطق يقول: عَرِّف الشيء ثم قسِّمه؛ لأنك بتعريفه تحدِّده، فإذا حدَّدته قسَّمته.

أنت اشتريتَ قطعة أرضٍ، قبل أن تقسِّمها انظر أين أنت؟ ضع حديدًا ثم قسِّم، هذا منطق العقل الفطري.

الخطيب عكَس، قسَّم أولًا، قال: فصاحة كلمةٍ، فصاحة كلامٍ، فصاحة مفردٍ، بلاغة كلامٍ، بلاغة متكلِّمٍ، ثم بدأ –بعد ذلك– يعرِّف كل واحدةٍ، فاعترضوا عليه، قالوا له: خالَفتَ المنطق، كان مُقتضَى الظاهر أنك تعرِّف ثم تقسِّم.

دفاع السعد عن الخطيب في أمر التقسيم أولًا:

الســعد دافع عن الخطيب، لما وجد أن الرجل ســار على الطريق دافع عنه، قال: يا جماعة، متى نعرِّف أشــياءَ متعددةً؟ إذا كان هناك ما يجمعها، تعريفٌ جامعٌ مانعٌ.

لأنه لو وضع تعريفًا لكل هذه الأشياء لن يكون جامعًا، ولن يكون مانعًا؛ فبالتالي يفر من الرماد ليقع في النار، فهو اختار أن يقسِّم أولًا، ثم يعرِّف كل قسمٍ، الرجل كان حكيمًا حين فعل، إذًا السعد يدافع عنه.

الاعتراض الذي وُجِّه إليه أيضًا: أنك يا خطيب ادَّعيتَ أنك لم تجد أحدًا عرَّف الفصاحة والبلاغة، وهذا غير صحيح.

بعض مَنْ كان قبل السعد قالوا: الرجل حين يقول: (**ولم أجد في الناس**)، كلمة (الناس) ليست عامةً، وإنما يقصد بهذه الكلمة الشيخان: عبد القاهر والسكَّاكي، فيقول: لا عبد القاهر عرَّف البلاغة، ولا السكَّاكي عرَّف البلاغة، إذًا هو لا يتهم العلماء السابقين أنهم لم يعرِّفوا الفصاحة والبلاغة.

الخطيب يقول: الرجل يقول أنه بالاستقراء، أنه لا يقصد هذا، يقول: فعلًا لم يوجد مَنْ وضع تعريفًا عامًّا للفصاحة والبلاغة، وإنما الذي يوجد إنما تعريفات للجزئيات، وليس تعريفًا عامًّا.

الشيء الثاني: قالوا له: أنت فسَّرتَ الفصاحة والبلاغة بالرأي، والألفاظ لا تُفسَّر بالرأي، وإنما تُفسَّر بالنَّقل.

فرد عليهم السعد قائلًا: لا، الرجل لم يفسِّر بالرأي؛ وإنما فسَّر بالاستقراء، فاستقرأ ما بين يديه، وانتهى إلى التعريف الذي انتهى إليه.

كل هذا لا يعنيني، يعنيني أن تعرف علاقة العلماء بعضهم ببعضٍ، أنت لما تجد عالِمًا هناك هجومٌ عليه، لا تكن مع مَنْ يهاجمه، حاول أن تقف لعلَّك تُنصِف الرجل من الهجوم عليه.

الشيخ أحمد كتب لنا مقالًا، لما وجد هجومًا شديدًا على السكَّاكي، فكتب للانتصاف للسكَّاكي، يحاول أن ينتصف للرجل، فقلت له: أني قرأتُ البحث، وظنِّي أن الرجل لو رآك يوم القيامة لقبَّل رأسك! لأنه كتب كلامًا أنا راضٍ عنه!

فبالتالي هذا من أدب طلب العلم! أنك إذا وجدتَ اعتراضًا على عالمٍ، فانظر أيمكن لك أن تعتذر؟ أيمكن لك أن تجد له مخرجًا؟ لأن حُسن الظن بالعالم ينفعك، لن تستفيد برجلٍ أنت تسيء الظن به!

لما تقرأ ما يُسمَّى (بروتوكولات بني صهيون)، وإن كان الكتاب مشكوكٌ في نسبته، ولازم أن تقرأه، أيًّا كان مَنْ وضعه، سواء هم مَنْ وضعه أو غيرهم، تجد أن من ضمن مبادئهم أن يشككوا الأمَّة الإسلامية في علمائها وأمرائها.

فإذا شكَّ الناس في علمائهم، وأنهم لا يخافون الله فيما يقولون، لم يعد لهم مرجعٌ علميٌّ، وبالتالي اتخذوا من عقولهم مراجع، وإذا اتخذ الرجل عقله مرجعًا في علاقته بالحلال والحرام ضلَّ، وهم يريدون ذلك؛ لأنه ليس أسهل عليهم من رجلٍ غرق في الحرام!

من عوامل الضـــعف للأمَّة أن يكثر فيها الحرام! أن يكثر فيها أكل الحرام! ولذلك سُهِّلت سُبله، فدائمًا سُبل الحرام تُوسَّع حتى تضعُف أنت معنويًّا وصحيًّا؛ فتكون سهلًا لأن تُقاد، فالتشكيك في الأمراء، والتشكيك في العلماء هذا مقتلةٌ!

فعلى الأقل طلاب العلم يحسِـــنون الظن بعلمائهم، لن تُعاقَب إذا أحسنتَ الظن بعالمٍ وكان فاسدًا! وإنما ستُعاقب إذا أسأتَ الظن بعالمٍ وكان صالحًا، فأيهما أحوط؟

اسـأل نفسـك لو أنك مكانه أكنتَ تقولَ؟ أأنتَ أفضـل منه؟! أأنتَ أتقى لله منه؟! فلِم لا يكون له وجهٌ من القول؟

سيدنا عبد الله بن مسعود يقول: [**لا يكن أحدكم إمَّعةً**]، يُنسب أنه حديثٌ، ولكن في رفعه إلى رســول الله مقال: [**لا يكن أحدكم إمَّعةً إن أحسن الناس أحسن، وإن أساءوا أساء، ولكن إذا أحسن أحسن، وطِّنوا أنفسـكم إذا أسـاءوا فلا تظلموا أنفسـكم**]، لم يقل: ولا تسـيئوا، ولكن قال: [**فلا تظلموا أنفسـكم**]، فلو اتَّبعتَ المسـيء فأنت ظلمتَ نفسـك، ليس أسأت، بل ظلمتَ نفسك، وأدخلك في منطقة الظلم.

والظلم ظلماتٌ يوم القيامة، فنحن لا نكون وراء كل مَنْ يقول على علماء الأمَّة أنهم كذا وكذا، خُذ حِذرك، وفكِّر فيما يُقال، ثم إذا لم يتبيَّن لك الصواب خُذ برأيه، والتَّبِعة والعُتبى عليه.

هذا ما أردتُ أن أشـــير إليه وهو يتكلَّم في مســـألة الاعتراضـــات التي وردت على الخطيب، وكيف رَدَّ عليها، أنت لســـــتَ معنيًّا كثيرًا بهذا؛ لأن هـذا جزءٌ منهجيٌّ خـارجٌ عن القول في البلاغـة، ولكنـه جزءٌ منهجيٌّ، إذا كنتَ تشـــتغل بمناهج التفكير فاقرأه جيدًا، وأنا كتبته بوضـــوحٍ، ممكن أن أعطيه للشيخ خالد يرفعه لكم.

انتبهوا لهذا جيدًا: اللســـان نعمةٌ من نعم الله، وللقلم أيضًـا مجده، حين تتكلَّم يكون لك من الله مَددٌ، حين تكتب يكون لك مَددٌ آخر غير الذي جرى على لســـانك، في غالب الأمر أن مَدد القلم أحكم، ومَدد اللســـان أنفذ.

يعني لما تســمع المعلومة من لســان الشـيخ تكون أنفذ فيك، لكنها في الغالب تكون غير محكمةٍ؛ لأنه أحيانًا يكلِّمك وهو يفكِّر في المســـألة، لم يكن قد فكر فيها قبل ذلك، عرضت له الآن، فيفكِّر وهو يتكلَّم.

الشيخ أبو موسى:

إخوانًّا الذين يحضـرون درس الشـيخ أبو موسـى، أحيانًا تجدوا الشـيخ ينطلق، وأحيانًا يتلكَّأ، أليس كذلك؟ تلاحظون ذلك؟ يقول كلمةً وينتظر، ويقول كلمـةً وينتظر، اعرَف أنـه في هـذه اللحظـة ورد عليـه واردٌ، الـذي ســيكلِّمك فيه هذا لم يكن قد ورد عليه، هو يفكِّر الآن، وتفكيره يضــبط لسانه فلا ينطلق، وأنا تابعته كثيرًا.

فلما يكون كلامًا كان قد قاله -قبل ذلك- تجده ينطلق كالسهم! لما تعرِض له فكرةٌ جديدةٌ الآن، يتلكَّأ في الكلام، ويستخدم يديه، تدرك أنه الآن في لحظة تجلِّي! واسكت! لا تعبث حوله، فلا بد أن تتركه حتى ينتهي.

هذا الكلام البطيء الذي يقوله في هذا الدرس، لما يأتي ليقوله ثانيةً فستجده قد انطلق فيه؛ لأن الفكرة وصلت ونضجت فلبست لباسها، لكن وهو يفكر كان لا يستطيع أن يجمع بين الكلمات، لا لعجزٍ في إبانته، ولكنه يخشى أن يُلبسها غير الذي يليق بها فيتأنَّى.

أنا أقول لك هذا الكلام لكي أنبهك ألَّا تتعلَّم من شيخك ما تسمع أذنك، ارقُب حاله، ماذا يفعل؟ كيف يمشي؟

كان من فضل الله عليَّ أني عاشرته عشر سنواتٍ متتابعاتٍ في مكة، فما كنتُ أتعلَّم منه البلاغة، كنت أنظر كيف يتصرف؟ متى الشيخ يثور؟ متى الشيخ يقول نُكتة، متى، ومتى؟ تقرأ الشيخ جيدًا جدًّا لكي تعرف كيف تتعامل معه؟ وتعرف متى تسأله؟

في أحيانٍ كثيرةٍ كنت أسأله ولا يجيب! لما يحس أني أقصد أسأله لا يجيبني، لكن لو أدرك أن السؤال جاء عفوًا يجيب، فبالتالي تتحيَّن الفرصة أنك لا تُشعره أنك جئتَ لتسأله!

قلتُ هذا الكلام لتتعلَّم كيف تتعامل مع شـــيخك؟ أنت لا بد أن يكون لك شيخٌ واحدٌ، وعشرات الأساتذة، كل مَنْ علَّمك فهو أستاذك، لكن في العِلم شيخًا واحدًا تلزمه.

آداب تعامل طالب العلم مع شيخه:

- شيخك هذا ترقب كل شيءٍ فيه، تأخذ ما يليق بك، وتترك ما لا يليق بك.

- وحذار أن تغرس عينك في عينه!

- وحذار أن تُكثر الجلوس بين يديه! إلف الجلوس إلى الشيخ مفسدةٌ؛ لأنك لو تآنستَ مع شيخك لن تستفيد منه.

مثل أبيك، لا تكن أنيسًا لأبيك؛ سترفع المهابة، لازم أن يكون للأب فاصل بينه وبين ابنه، فانظر إلى تصرفاتك أمام ابنك حتى يظل يحترمك، وإلَّا فتكون أنتَ الذي عققتَ!

لذلك أهل الحكمة يقولون: [**ثلاثةٌ لا يستفيدون من العالم والولي: الزوجة، الولد، الخادم**] لماذا؟ للمؤانسة، يعيشون معه دومًا، يرونه في كل أحواله، وهذا ينزع منه المهابة.

فهناك ما يُسمَّى بحلية طالب العِلم، اقرأوها، علماؤنا الكبار كتبوا كثيرًا كثيرًا في هذا؛ لكي تعرِف علاقتك بشيخك وهكذا.

يقول:

"والفصاحة الكائنة في المفرد خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس"

قبل أن أذكر لك كلام العلماء معه في كلمة "**خلوصـــه**" هذه، هو لماذا جعلهم ثلاثة؟

قال: لأن الكلمة لها أضلُع ثلاثة:

- **صوتها**.
- **وبنيتها**.
- **ومعناها**.

فالكلمة مثلثٌ، مثلثٌ متعلِّقٌ بالصـــوت، ومثلثٌ متعلِّقٌ بصـــيغتها الصَّرفية، ومثلثٌ متعلِّقٌ بمعناها، الصوت يخدِّم على البِناء، والبِناء يخدِّم على المعنى، هذا بالترتيب.

إذا كان العيب في الصوت، فمعناها أن هذه الأصوات غير متجانسةٍ، غير متآخيةٍ، غير متناغيةٍ، ليس بينها أنسٌ صـــوتيٌّ نغميٌّ، نريد أن تكون الأصـوات متناغيةً، هذا يمنعها من أن يحصـل ما يُسـمَّى بتنافر الأصـوات، أصواتها متنافرةٌ.

العقاد واللغة العربية:

يقول العقاد أن من فضـــل الله علينا أن اللغة العربية من أقل لغات أهل الأرض مخارج حروفٍ، ولكنها توظِّف كلَّ مخرجٍ توظيفًا أوسع.

مثل الْمُغَنِّي، لو خَلفه مائة شـخص يعزفون اعرف أنهم كلهم ليسـوا على قَدْر كبير من الكفاءة، لكن لما يكون التخت قليلًا، خمسة أو ستة، فسيقومون بما كان يعمله المائة، عندهم قدرةٌ –من خلال آلاتهم– أن يوظِّف هذه الآلة في أكثر من نغمةٍ، ولما يكون عدد آلاتٍ قليل، ويأتي لك بكل التونات، فمعنى هذا أن هذا التخت أساتذة كبار.

يقول: هذا الجهاز الصـوتي لديك، مع قلَّة مسـاحته، مخارج الحروف فيه قليلةٌ، تجد مخرج أقصى الحلق فيه ستة مخارج، مع أنه صـغيرٌ جدًّا، لكن حركة بسـيطة جدًّا تفرق بين (الحاء) و(العين)، بين (الهاء) و(الهمزة)، ومعناها أنك رجلٌ دقيقٌ جدًّا وأنت تنطق، كمن معه آلة موسـيقية أقل حركة خطأ تعطيك نغمةً مختلفةً؛ ولذلك يلزم أن تكون يقظًا جدًّا وأنت تُخرج الحرف، من أين ســيخرج؟ وقدْر درجة الصـــوت؟ إذًا تتكلَّم وأنت غافلٌ، أم تتكلَّم وأنت مُستنفِرٌ؟

الأصـل في العربي ألَّا يتكلَّم إلَّا إذا كان مالكًا عقله أولًا، ومسـيطر على كل مدرِكاته، مسيطر على جهازي الصوتي، سأخرج همزة أم هاء؟

ابنك الطفل الصغير عندما ينطق (الراء) لامًا مثلًا، هذا لأنه غير مسيطرٍ على جهازه الصوتي، عقله يقول له: انطق (راء)، وهو ينطقها (لام) بسبب أنه ليس لديه سيطرةٌ على هذا الجهاز.

معنى هذا أن هذا الجهاز، هذه الآلة الموسيقية تحتاج رجلًا يستخدمها استخدامًا رائعًا؛ لأنك قد تضع صوتًا مكان صوتٍ، وتنتقل من معنًى إلى معنًى.

لهذا قالوا: لا بد أن يكون هناك دَرْبٌ من التناغي والتآخي بين أصوات الكلمات التي تنطقها؛ ولذلك عند إخوانَّا الذين يدرسون فقه لغةٍ، عندهم يقولون: إذا التقى حرف كذا مع حرف كذا فالكلمة ليست عربيةً.

تريد أن تعرف إن كانت الكلمة عربية، إذا حرف (الزاي) إذا كان مع حرف كذا مثلًا فاعلم أن هذه الكلمة أعجمية، لماذا؟ لأن فيها نشاذًا صوتيًّا، والعرب لا ينطقون بذلك، فهذا من العوامل التي درسناها في كلية اللغة، العوامل التي تستكشف إذا كانت الكلمة عربيةً أو غير عربيةٍ؛ عدم وجود تآنس بين هذه الأصوات؛ فيكون هذا الشق يحتاج تناغمًا صوتيًّا، وهنا تكون البنية –تركيب الكلمة– جاريةً على أصول بناء الكلمة.

كثيرًا ما نُخرج الكلمات عن صيغتها، فنستعملها في صيغةٍ ليست صحيحة، مثلما تكتب خطابًا، وتكتب في نهايته (الراسل)، هذا خطأ،

الصواب: (المرسِل)؛ لأن (أرسل) اسم الفاعل منها: مرسِل، وليس راسل، فلا يوجد فعل اسمه (رسَل) لكي أقول: راسل.

فهذا معناه أنك خالفتَ، والمخالفة لا نستطيع أن يؤولها لك، لأن أصل هذا الفعل الثلاثي هذا (رسَل) ليس عندنا، فكيف نؤوله؟! نحن نؤوِّل لما يكون هناك مندوحة، معنا ما يعيننا على ذلك؛ مثل عبارة (نواكس الأبصار).

فإذًا لا بد أن أعرف علم صرفٍ، لكي تكون بلاغيًّا يلزم أن تعرف علم صرفٍ، الذي هو مصنع صناعة الكلمة، بناء الكلمة، وهذا علمٌ بديعٌ جدًّا، إخواننا الذين لديهم عقولٌ رياضيةٌ، عقله عقلٌ رياضيٌّ يكون متميِّزًا في علم الصَّرف!

ولذلك كان شيخنا كامل الخولي يقول: [**علم الصَّرف علم البنات**]؛ لأن البنات يتميَّزن في علم الصَّرف، وليس في علم النحو، وأحيانًا يهمزون إخواننا الذين أخذوا بحوثهم في علم الصَّرف، وليس في علم النحو؛ لأن الخلاف في علم الصَّرف قليلٌ، ولا يحتاج جهدًا كبيرًا، بينما الخلاف في علم النحو أكبر، فلما الطالب يتخصص فقط في الصرف، كل بحوثه صرفية، يخشون أن يكون ذلك بسبب ضعفه! أي هرب للمنطقة الأسلم!

يأتي بعد ذلك جزء العيب في الأصوات، العيب في بنية الكلمة، العيب في بنية الكلمة نسميه مخالفة القياس، ويقصد به القياس الصَّرفي، وليس القياس الفقهي.

بعد هذا يقول: لو أن العيب في اللغة، في دلالة الكلمة على معناها، اسمها: غرابة.

العيب الأول، والعيب الثاني عيوبٌ موضوعيةٌ، يعني عيوب عِلمية ممكن أن نتداركها، ممكن أن نلتقي عليها، ممكن أن نتفق عليها، أن هنا فعلًا يوجد تنافر، وهنا مخالفة للقياس، أما في الغرابة فهذه عيبٌ ذاتيٌّ، يتبين لك اتساع معارفك أو ضيقها، كلما ضاقت معرفتك بالعربية كلما حكمتَ على كثيرٍ من الكلِم بأنها غريبةٌ!

☼ لماذا كانت كتب غريب القرآن وغريب الحديث من أواخر ما كُتب؟

- كُتب غريب الحديث، وغريب القرآن من أواخر ما كُتب؛ لأن الزمان الأول لم يكونوا يرون أن في القرآن وفي السُّنَّة غريبٌ! فلم يكونوا بحاجةٍ إلى أن تؤلَّف لهم كتبٌ في ذلك، فكل مَنْ تراه لا يفهم معاني الكلمات فاعلم أن حصيلته من اللغة ضعيفة.

دائمًا نقول لطلاب العلم: تعاملوا مع اللغة العربية كما كنتم تتعلَّمون الإنجليزية في أول أمركم، في أول أمرنا كان أستاذ اللغة الإنجليزية يعرِّفنا –كل يومٍ– ثلاث كلماتٍ، تنطقها جيدًا، تكتبها جيدًا، تضع كل كلمةٍ في جملةٍ، فيصبح معك مُعجم في آخر السنة بالكلمات التي لا بد وأن تكون قادرًا على نطقها، قادرًا على كتابتها، قادرًا على أن تضعها في جملةٍ.

أقول له: افعل هذا مع اللغة العربية، وأنت تقرأ كلمةً غريبةً، اكتبها في كشكولك، واضبطها جيدًا، وانطقها جيدًا، وضعها في جملةٍ، مع طول الوقت تتخرَّج من الكلية ومعك مُعجمٌ خاصٌّ بك، لكي لما تكتب حتى ولو نُزعت الصفحة الأولى من الكتاب، ولا نعرف مَنْ ألَّف الكتاب، يأتي واحدٌ يقرأ ويقول لك: هذا كلام فلانٍ، كيف عرفتَ؟ يقول: من مُعجمه، الذي يستعمل هذه الكلمات وهذه التراكيب فلان.

أنا أذكر أنا أحد شيوخنا جاءه طالبٌ بكلامٍ، فقرأ فقال له: أعطي هذا الورق لفلان! عرف أن الطالب سرق هذا الكلام من شيخٍ، قال له: هذا ليس كلامك، هذا كلام فلان، إما أنه كتبه لك، أو أنك سرقته! خبيرٌ!

وهذا يسموه نقد المتن، أنك تعرف من المتن إذا كان هذا حديثًا أو ليس حديثًا، يقول لك: هذه الكلمة الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- لا يستعملها، هذه التراكيب ليست من هَدْي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

هناك طبقةٌ أعلى، بمجرد أن يقرأ يقول: لا أرى عليه نور النبوة! أنا لا أحس أن هذا كلام النبي! ويُبحث في الأسانيد فيوجد كما قال.

كان على عهدٍ قريبٍ أحد الأساتذة في معهد القاهرة، كان يُعرَض عليه الحديث، فيقول: ليس عليه نور النبوة، فيجدونه ضعيفًا أو موضوعًا!

لسنا مثل هذه الطبقة من العلماء، طبقتنا أنني لما أقرأ لفلان أعرف أنه كلام فلان، ممكن أن يكون اسمك منزوع من ورقة الإجابة في السنة الرابعة أو

في الدراسـات العليا؛ ومع ذلك يعرف أسـتاذك أنها ورقتك، وذلك من خلال طريقة الكلام التي تكتب بها.

فلا بد أن يكون لك معجمٌ لفظيٌّ، ومعجمٌ تركيبيٌّ، ومعجمٌ أدائيٌّ حتى يمكن أن يتعرَّف الناس عليك.

هم بدأوا يتكلَّمون على ثلاثة عيوبٍ في الكلمة:

- **إما أن يكون عيبًا في صوتها.**
- **إما أن يكون عيبًا في بِنيتها.**
- **إما أن يكون عيبًا في معناها، في أنها لا تدل على معناها الدلالة التي يُراد لها أن تدل عليها.**

هذا ما سنحاول -إن شاء الله تعالى- أن نفعله في الجلسة القادمة.

هل هي جلسـةٌ أم ليسـت جلسـةً؟ يصـلُح أن نقول عليها جلسـةً؟ متى أقول: جَلَس؟ إذا كنتُ واقفًا وجلسـتُ؟ أم كنت نائمًا وجلسـتُ؟ إنما نقول: مُلتقى، ماذا نقول؟ ملتقى.

سـبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشـهد ألَّا إله إلَّا أنت، أسـتغفرك وأتوب إليك، والحمد لله رب العالمين.

****